

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 236 يونيو 2019

استدامة الحرف اليدوية التقليدية الإماراتية

الشَّاعر القديم وفانتازيا الفقر

قنطرة قرطبة.. قنطرة الدهر

القضاء البدوي في الحرب

«كيالين الماء» في واحات «توات»

«المحامل» في الشعر النبطي الإماراتي

ملف: مهن التراث ذخيرة لصناعات حديثة

الصناعات الثقافية والحرف اليدوية
في عصر المعلوماتية

د. محمود الضبع

شهدت السنوات الأخيرة عالميا ما يسمى بالاحتكارات الخمسة، وهي: احتكار التكنولوجيا الرفيعة، والمؤسسات المالية ذات النشاط العالمي، والقرار في الحصول علي الموارد الطبيعية، ووسائل الإعلام على صعيد عالمي، واحتكار الوسائل العسكرية.

ولعل ما يعنينا في المقام الأول بشأن الثقافة والصناعات الثقافية هو الأول والرابع، من جهة لارتباطهما بصناعة الثقافة عالميا، ومن جهة ثانية لأن امتلاك القدرات الهائلة في مجال الإعلام وتكنولوجيا الاتصال أصبح هو المتحكم في سوق العولمة، والذي تتحدد على أساسه أسهم كل منتجي الثقافة (على اعتبار أن الثقافة ذاتها غدت سلعة، وأن الصناعات الثقافية تندثر عندما لا تجد السوق والاستهلاك المحلي أو العالمي).

ومن الواضح الآن أنه لم تعد هناك فرصة أمام المستهلكين سوى الاستجابة لأوامر السوق العالمي ومن يتحكم فيه ويفرض قوانينه وقواعده، ولذلك ليس غريبا أن الواقع الفعلي بشأن هذا الاحتكار يؤكد أن أربعة وكالات أنباء عالمية فقط معروفة باسم "الأربعة الكبار" هي التي تحتكر نسبة 80% من إجمالي التدفق المعلوماتي العالمي، وأن مائة موقع فقط هي التي تستولي على 80% من إجمالي مستخدمي شبكة الانترنت، وكل ذلك يخدم الهدف الأساسي لهؤلاء الكبار، وهو صناعة العقول وصياغة الرأي العام العالمي، وتسويق منتجها التراثي بوصفه ثقافة صالحة للتداول الآن، وخلق المعتقدات لدى الأفراد وخلق الجماهير الداعمة لفكرة أو عقيدة ما يتم تصديرها عن طريق هؤلاء الكبار، أي أنهم لا يتحكمون في مسار السوق العالمي فقط، وإنما في أفكار وثقافات الشعوب وصناعاتهم الثقافية أيضا، وفي تسويق منتجاتهم التراثية والمعاصرة.

ومن هنا كانت توجهات الدول - التي أدركت ذلك مبكرا - متجهة نحو رصد عناصر تراثها، وتحويله إلى منتج ثقافي وربطه بالمعلوماتية والتكنولوجيا ووسائل الاتصال المعاصرة، ومن هنا – أيضا- بدأ تداول مصطلح ومفهوم "الصناعات الثقافية".

لقد كان الاهتمام بالصناعات الثقافية نابعا من الوعي بدور الثقافة في الاقتصاد وإعادة بناء المجتمع المعاصر، وأنه يمكن أن يمثل شكلا من أشكال القوى الناعمة لخدمة مفهوم الدولة داخليا وخارجيا، ففي الداخل تعزز هذه الصناعات مفاهيم الانتماء والولاء وتحقق العديد من الأهداف السياسية والاقتصادية في إطار تعزيز العلاقة بين الدولة والمواطنين، وبخاصة مع حروب الجيل الرابع والخامس والسادس التي

تعتمد في بعض آلياتها على إحداث التوتر بين الدولة ومواطنيها على نحو دائم لإحداث الزعزعة وعدم الاستقرار، وعلى فصل الشعوب عن تراثها وهوياتها الثقافية ... إلخ.

وعلى المستوى الخارجي فقد أثبتت تجارب العديد من الدول، مثل الصين واليابان، والولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها، أن الصناعات الثقافية تمثل ركيزة أساسية في خدمة أهدافها السياسية والاقتصادية وتحقيق مفاهيم القوة عالميا.

الصناعات الثقافية، المفهوم والدلالة:

يتضمن مفهوم الصناعات الثقافية عددا من العناصر التي تشكل في النهاية مواصفات المنتج الذي ينطبق عليه هذا المفهوم، فهي تقتضي:

1. وجود منتج مادي (ملموس) أو غير مادي (شفاهي مسموع، أو مشاهد أو مرئي).
2. وجود نشاط يحول هذا المنتج من فكرة إلى وجود مدرك.
3. وجود رمزية فنية اكتسبها هذا المنتج عبر التاريخ (تحقق عنصر التراثية).
4. وجود هوية وخصوصية ثقافية ارتبطت بممارسات عتيقة وتخص هذا الشعب دون سواه.

ولذلك عرفت اليونسكو الصناعات الثقافية بأنها : "الصناعات التي تنتج أعمالا فنية وأعمالا مبتكرة، سواء أكانت ملموسة أم غير ملموسة، ولها القابلية لتحصيل مردود مادي من خلال استغلال المخزون المعرفي والقيم الثقافية، سواء في المجالات التقليدية أو الحديثة"[1].

أي أن هذه الصناعات لابد أن تشتمل على مضمون ومعنى اجتماعي وثقافي وأن تكون لها جذور تراثية.. وتوضيحا لذلك يمكن التطبيق على منتجاتنا العربية السابق الإشارة إليها أعلاه، المادي وغير المادي (الشفاهي وغير الشفاهي)..

فإلى الشفاهي المسموع يمكن أن تنتمي:

- الأغنيات الشعبية العربية المرتبطة بطقوس الاحتفال: الولادة (سبوع المولود)، والزواج والأفراح، والعمل الجماعي (جماعات الحصاد، وعمال التراحيل في بعض البلدان.. إلخ).
- أناشيد المناسبات الدينية (المصاحبة لرحلات الحج في الإسلام، والحنون المسيحية.. إلخ).
- ترانيم الحزن والموت والفقد (العدودة في رثاء المتوفى.... إلخ).
- فنون القول الشعبية (الموال، وفن الواو، والعرضة..... إلخ).
- الأمثال الشعبية، ومقولات وقصص الحكمة القصيرة ... .
- الأحاجي والألغاز الشعبية.

---

[1] - Alice loy : Definition of cultural industries , global center for cultural entrepreneurship, advancing cultural entrepreneurs , building cultural economics , 2009.

- السير والمغازي (السيرة الهلالية، وسيف بن ذي يزن، وعنترة بن شداد، والأميرة ذات الهمة، وحمزة البهلوان.... إلخ)، وما ينتج عنها من سير فرعية.

وإلى المشاهد المرئي، يمكن أن تنتمي عروض الأراجوز (وبخاصة بعد تسجيله باسم مصر في اليونسكو هذا العام) وفن العازي (بعد أن سجلته الإمارات العربية المتحدة العام قبل الماضي كثامن عنصر)، وحكايات الراوي الشعبي، ورقصات الدبكة، ودق الطبول، والدفوف، وكذلك كل أشكال الميديا المرئية (مسرح، سنيما، تليفزيون، عروض متجولة) الناتجة عن هذه الصناعات، مثل سلاسل الأفلام الخاصة بألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، والسير الشعبية ... إلخ.

وإلى المادي الملموس يمكن أن تنتمي كل أشكال العمارة وأدوات الحياة التي يستعملها العربي بدءا من استيقاظه في الصباح، ومرورا بملابسه وأدوات عمله، وانتهاء بفراشه ونومه، حيث تأتي هذه الأدوات مرتبطة بالبيئة واحتياجاتها، وشيئا فشيئا أصبحت لها فنونها، وتحولت إلى صنائع وحرف يدوية لها أسرار صناعتها وجماليات إنتاجها التي تحتاج إلى توثيق وإنتاج بمفهوم "إنتاج المحتوى" المعاصر، أي إنتاجها كتابيا ومرئيا وصوتيا .... بكل أشكال الإنتاج المتاحة حتى الآن.

ولذا لم يكن غريبا أن تحدد اليونيسيف المجالات التي تتبع الصناعات الثقافية في واقعنا المعاصر، لتشمل:

العمارة والحرف وتصميم الأثاث والملابس والسينما والإعلانات وتصميمات الجرافيك والبرمجيات التعليمية وفنون العرض والفنون البصرية والموسيقى.... شريطة أن تكون متضمنة للهوية والفن ومنتمية إلى التراث وقابلة للتوصيف والإنتاج معرفيا.

الصناعات والحرف اليدوية العربية:

تتميز الصناعات والحرف اليدوية العربية بالخصوصية الثقافية، وتتحقق فيها مقاييس الجمال والفن والإبداع، وتتعدد أنواعها المستمرة حتى الآن، ومنها: الخيامية (صناعة الخيمة)، والتُلي (التطريز بالخيوط المعدنية)، والسجاد اليدوي (بغزل الصوف ومنه الكليم)، والصناعات النحاسية المنقوشة (أدوات الطعام والشراب والزينة)، والزجاجية (نفخ الزجاج)، والفخارية (صناعة الفخار)، والخشبية (الأثاث)، والأرابيسك، والخطوط العربية، وفنون الزخرفة الإسلامية (النقش والرسم والتذهيب والتلوين والتطعيم والتعشيق...)، وفنون العمارة والزخرفة المعمارية، وغيرها من عشرات الفنون والحرف التي تحتاج لمزيد من الجهود العربية لاستثمارها.

وهو ما سيحقق العديد من العوائد، مثل: استثمار مواد البيئة وحسن استهلاك وتوظيف الموارد الطبيعية والخامات، وحل مشكلات البطالة، وزيادة معدلات الإنتاج، وزيادة التصدير، والتسويق

السياحي، وجذب الاستثمار، وهو ما ساعد الكثير من دول العالم على تحقيق معدلات اقتصادية مرتفعة عندما أدركت ذلك فوضعت له الخطط لتنظيم وتطوير عمليات إنتاجه وفتح أسواق محلية وعالمية له.

إنتاجها معرفيا ومعلوماتيا (المحتوى الرقمي):

من شروط التواجد العالمي الآن أن يتم تحويل المنتج الفكري والمادي إلى شكل من أشكال المعلوماتية المعاصرة، وهو ما يقتضي اعتماد مفهوم "إنتاج المحتوى" بصيغه الرقمية المعاصرة، أي إنتاج الشيء الواحد في صور متعددة قابلة للتداول بالوسائط المتعددة، ومنها:

- المطبوعات: وتشمل الكتب والأدلة والمطويات والملصقات والطوابع البريدية والصور التذكارية والألبومات .... إلخ.
- المواد المسموعة: من مقاطع صوتية وشروح ، وأغنيات وموسيقى مصاحبة... إلخ.
- المواد المرئية: من أفلام قصيرة، ومقاطع يوتيوب، ومواد فيليمية متنوعة تصور خطوات إعداد المنتج أو صورته النهائية على سبيل النشر والدعاية والتسويق.
- الصيغ التفاعلية: مثل متاحف المحكاة **simulation museum** الذي يعتمد تقنيات 3D ويحقق عوائد اقتصادية عبر شبكات الإنترنت بما يسمح به زيارات مدفوعة الأجر، وغيرها من صيغ تفاعلية أتاحتها التكنولوجيا المعاصرة.
- الكتب الرقمية E Books : وتشمل الموسوعات التفاعلية، والكتب الإلكترونية الرقمية، وغيرها.

هذا ما تتطلبه الحرف اليدوية والصناعات الثقافية العربية، وبخاصة في زمن لم يعد يحتاج إلى متخصصي تصوير وتسجيل صوتي ، وإنما يمكن للأفراد العاديين من الشعوب إنتاجه عبر هواتفهم الذكية، فقط يحتاج إلى تخطيط واع ومدرك لأبعاد ما يصنعه وكيفية صنعه، وهي مهام تحتاج إلى جهود مؤسسية وحكومية وليست فردية فقط.

الصناعات الثقافية العربية إلى أين:

عرف تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003م "نحو إقامة مجتمع المعرفة" هذا المجتمع على أنه: ... الذي يقوم أساسًا على نشر المعرفة وإنتاجها وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي: الاقتصاد والمجتمع المدني، والسياسة والحياة الخاصة، وصولا لترقية الحياة الإنسانية باطراد"[2].

فهل وعي المجتمعات العربية بالصناعات الثقافية يندرج تحت هذا الإطار؟ وهل تم بالفعل أو يتم تحويل هذه الصناعات الثقافية إلى معرفة ومعلوماتية قابلة للتداول (النشر والإنتاج والتوظيف)؟

---

[2] - تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2003، **"نحو إقامة مجتمع المعرفة"**، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي: 39.

وبخاصة في ظل متغيرات المعلومات عالميا وتضاعف حجمها وظهور معلومة جديدة كل ثانية على الأقل في كل علم، وهو ما يطرح تساؤلاته في كل مجالات الحياة العربية، بدءا من التعليم، ومرورا بالصحة وعلوم الفلك والكون ومظاهر تطور الأفراد والشعوب، وعلاقتهم بمجتمع عالمي لم يعد يكفيه أن تبتعد عنه بمسافتك الكافية، ولكنه يخترقك في كل حين بآلياته وأفكاره.

مما لاشك فيه أن أمتنا العربية (على اختلاف الدول والشعوب والأقاليم الجغرافية والثقافية) تمتلك الكثير والكثير من الحرف التقليدية، بعضها مستمر في الإنتاج، وبعضها يعاني من صعوبات عدة واندثار في كثير من الأحيان..

وعلى الرغم من تبني شعار المعلوماتية ومجتمع المعرفة في بلداننا العربية، إلا أن هذه الحرف والصناعات ما تزال فقيرة على مستوى الإنتاج المعرفي والمعلوماتي، ولم يتم العمل الكافي على إبرازها عالميا، واستثمارها لخدمة قضايا الهوية والإنتاج المعرفي والمعلوماتية والصناعات الثقافية... إلخ، فالثقافة والمعرفة لم تعد كما مختزنا من المعلومات التي ينبغي تعليمها، وإنما يتخطي الأمر تلك المرحلة، مثال ذلك التعليم العربي الذي يكتفي بتعليم الأسس والقواعد والنظريات والمعارف، ولا تتضمن مناهجه ما يتعلق بتعليم إنتاج الصناعات الثقافية، وما يرتبط بها من حرف يدوية وفنون وموروثات شعبية.

فهل يعود ذلك إلى غياب الوعي بدور وأهمية هذه الصناعات في خدمة المجتمعات والدول والسياسات؟

أم يعود إلى فقد الثقة في قدرة هذه الصناعات على القيام بدور في بناء الدول الحديثة والمتطورة ؟

أم أن ما يحدث الآن بشأن الموروثات العربية هو النتيجة الطبيعية لغياب وجودها في مناهج التعليم الرسمية والموازية (الإعلام والميديا وأنشطة الحياة والأسرة....)، وبالتالي لا يعرف الكثيرون من أبناء العربية والمسؤلين المعنيين أهميتها من الأساس؟.

أم أنه كان نتيجة تغييب مقصود في إطار فصل الشعوب العربية عن هويتها وتراثها بدءا من سنوات ما بعد الاستعمار؟

أم أن التطورات الحضارية والتكنولوجية تحول دون الاهتمام بمثل هذه الموروثات واستعادة وجودها في حياتنا المعاصرة؟

لعل سببا واحدا أو أسباب متعددة كانت وراء ذلك، لكن ربما يتذكر البعض أن المبادرات القليلة التي تبنتها منظمات دولية أو محلية في بعض بلدان الوطن العربي لصالح إعادة إحياء بعض الصناعات والحرف اليدوية وتطوير إنتاجها باستخدام الميكنة وأدوات التكنولوجيا، هذه المبادرات – على قلتها- أدت إلى نتائج إيجابية وملموسة في واقعنا، وحققت وجودا عالميا بعد اندثار طال لعشرات السنوات.